المحاضرة الثانية ((مصطلح تسمية الفلسفة اسلامية ام عربية))

من الخير أن نشير تمهيداً إلى الخلاف الذي أُثير حول تسمية التراث الفلسفي المكتوب باللغة العربية ، والذي أُنتج معظمهُ ، في العصر العباسي ؛ علماً أنه ليس في العربية فلسفة قبل الإسلام ، ولا بعد القرن الرابع عشر الميلادي . ومن الذين أثاروا هذه المشكلة المستشرق الفرنسي هنري كوربان Henri Corbin في مقدمة كتابه « تاريخ الفلسفة الإسلامية » Histoire de la philosophie islamique, Paris, 1964 .

لقد أطلق بعض الباحثين أمثال دي بور ، ومتز ، وإبراهيم مدكور وغيرهم ، على ذلك التراث اسم الفلسفة الإسلامية ، وآثروه على اسم الفلسفة العربية ، زاعمين أن الذين أنتجوه ، لم يكونوا عرباً ، كابن سينا والفارابي ، وإنما كان يجمعهم الإسلام .

بينما فضّل آخرون اطلاق اسم الفلسفة العربية عليه ، لأنه كُتب باللغة العربية ، ولأن اللغة هي التي تعطي النتاج الفلسفي هويتهُ ، وليس دينُ صاحبه . من هؤلاء عبد الرحمن بدوي الذي رأى في الخلاف على التسمية مشكلةً زائفة ، لأن المدلول بنظره واحد : فهي فلسفة عربية لأن الكتب المؤلفة به كتبت باللغة العربية . وهي إسلامية ، بمعنى أن أصحابها عاشوا في دار الإسلام ، حتى لو كان بعضهم لم يعتنق الإسلام . ووصف هذه الفلسفة بأنها إسلامية ، إنما قصد به المعنى الحضاري والسياسي ، أي التي نشأت في إطار الحضارة الإسلامية التي يسودها الإسلام ، إذ الفلسفة علم عقلي خالص ،

وتبعاً لذلك لا تقبل أن تُوصف بوصف ديني ، شأنها شأنُ العلوم العقلية كالرياضيات والطب والفيزياء إلخ . فكما لا يجوز لنا أن نصف الهندسة أو الطب أو الفيزياء بأنها وثنية أو يهودية أو مسيحية ، كذلك الفلسفة لا يصح أن توصف بأنها إسلامية .

ونرى أحد المؤلفين ، على الرغم من تسمية كتابه « تاريخ الفلسفة الإسلامية » ، يستنسبُ تسميتها بالفلسفة العربية ، لأن تلك الفلسفة ، وإن كانت حصيلة عملٍ فكري مركب ، اشترك به السريان والعرب والأتراك والفرس وسواهم ، اشتراكاً فاعلاً ، لكن العنصر العربي كان راجحاً . ثم إن العرب انفردوا برأيه في تقديم العنصر الجامع الأوحد ، وهو الدين الإسلامي . ذلك المؤلف هو ماجد فخري .

إن الهدف من إثارة هذه المشكلة التي تولاها المستشرقون وضعُ إسفين بين الإسلام والعروبة . وهو يندرج في جملة الأهداف التي ترمي إلى التفرقة والخلاف بين العرب وسائر المسلمين ، ليسهل على الغرب استعمارُهم واغتصابُ ثرواتهم ، والتحكمُ بمقدراتهم . إن العرب كما قال الخليفة عمر بن الخطاب ، مادة الإسلام . ومن الصعب الفصل بين الإسلام والعروبة ، لأن الإسلام عربي المنشأ واللغة والروح . ولذا نقول إن الفلسفة العربية هي الفلسفة الإسلامية ، والفلسفة الإسلامية هي الفلسفة العربية ، شريطة أن تُكتب باللغة العربية . إن اللغة كما يقول آير ، أحد مناطقة المذهب الوضعي ، هي الفكر ، وهي التي تمنحه هويته .

والأخطر من التسمية تقويم الفلسفة العربية . والتقويم يعني تقدير قيمة الشيء . لقد شك بعض الباحثين في قيمة الفلسفة العربية وذهبوا إلى أن ما خلفه العرب في حقل الفلسفة لا شأن له ، إذ يخلو من الإبتكار ، وجله مقتبس عن الفلسفة اليونانية . إن كل ما فعله الفلاسفة العرب هو أنهم تناولوا شيئاً من الفلسفة اليونانية ، وشيئاً من القرآن ، وحاولوا التوفيق بينهما . وقد عبر المستشرق الهولندي دي بور في كتابه « تاريخ الفلسفة في الإسلام » عن هذا الإتجاه بقوله : « وظلت الفلسفة الإسلامية ، على الدوام ، فلسفة انتخابية ، عمادها الإقتباس مما تُرجم من كتب الإغريق ، ومجرى تاريخها أدنى أن يكون فهماً وتشرباً لمعارف السابقين ، لا ابتكاراً . ولم تتميز تميزاً يذكر عن الفلسفة التي

سبقتها ، لا بافتتاح مشكلاتٍ جديدة ، ولا هي استقلت بجديد فيما حاولته من معالجة المشاكل القديمة ، فلا نجد لها في عالم الفكر خطواتٍ جديدة تستحق أن نسجلها لها . . . ونكاد لا نستطيع أن نقول إن هناك فلسفة إسلامية بالمعنى الحقيقي لهذه العبارة ، ولكن كان في الإسلام رجال كثيرون ، لم يستطيعوا أن يردوا أنفسهم عن التفلسف . . . ومن اليسير أن نستهين بشأنهم إذا أطللنا عليهم من إحدى المدارس الحديثة المزهوة بنفسها » .

هذا الحكم ينطوي على كثير من المغالطات . إن إنكار وجود الفلسفة العربية تدحضه مئات المؤلفات التي خلفها المفكرون العربُ في العصر العباسي . ولا يضير هؤلاء المفكرين تأثرهم بمن سبقهم من مفكري اليونان أو الهنود أو الفرس ، فظاهرة التأثر والأخذ موجودة عند جميع الشعوب . صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان ، ولكن اليونان أخذوا أيضاً عمن سبقهم من بابليين ومصريين وهنودٍ وفرس . والدليل على ذلك أن هذه الأمم سبقت اليونان إلى إنشاء حضارات عريقة بنحو ألفي سنة . وإن رواد الفلسفة اليونانية أمثال طاليس وديموقريطس وفيثاغوراس وأفلاطون وفدوا إلى حواضر شرقي المتوسط واطلعوا على معتقدات أهلها وعلومهم .

وكما أخذ العرب عن اليونان ، فقد أخذ الأوروبيون عن العرب في القرون الوسطى ، ونقلوا كتبهم العلمية والفلسفة إلى اللغة اللاتينية ، لغتهم الثقافية ، عن طريق إسبانيا وإيطاليا . وكان لابن رشد أتباع في أوروبا سموا الرشديين .

وفي الفلسفة الأوروبية الحديثة يمكننا أن نلاحظ آثار الفلسفة العربية وبعض ملامحها لدى العديد من الفلاسفة والمدارس الفلسفية التي تزهو بنفسها ، حسب تعبير دي بور . فديكارت أبو الفلسفة الأوروبية الحديثة يسلك الطريق ذاته الذي سلكه الغزالي ، للوصول إلى الحقيقة ، فهو مثله يشك في التقليديات والحسيات والعقليات ، ولا يخلصه من شكه سوى ثقته بالله الذي لا يمكن أن يُضلَّه . وهو يلتقي مع الغزالي في شرطي الفكرة الصحيحة ، أو اليقينية ، وهما الوضوح والتميز . وهو يجعل من الوجود الفكري مبدأ أول لفلسفته وهذا المبدأ نجده عند ابن سينا . إن وجود النفس أو الفكر لا يحتاج إلى برهان وهو يُعرف مباشرة بالحدس ولذا يصلح أن يكون مبدأ للفلسفة .